الغزو الثقافي والأمن المجتمعي وحماية الهوية الثقافية
دراسة تحليلية في المجتمع العراقي في ظل التحولات المعاصرة

م. د. فلاح حسن عبد مانع
كلية العلوم السياسية / جامعة النهرين
dr_falah1967@yahoo.com

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٥/٦/١٠
تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٥/٦/٢٩

الخلاصة

تناولت الدراسة الحالية موضوع الغزو الثقافي من زاوية علاقته بالأمن المجتمعي وحماية الهوية الثقافية في العراق، من خلال تحليل مظاهره وأدواته وتأثيراته، خصوصاً بعد عام ٢٠٠٣.

وركزّت الدراسة على الطريقة التي أعاد بها الغزو الثقافي تشكيل الأدوار والرموز الاجتماعية، خاصة فيما يتعلق بالجندر والهوية والانتماء، ويعرض لتأثيره في العلاقات بين الأجيال، وتراجع دور المؤسسات التربوية والدينية.

اعتمد البحث إطاراً نظرياً يستند إلى مفاهيم الهيمنة الثقافية، والأمن الثقافي، والنوع الاجتماعي، مع محاولة استكشاف أبعاد التحول في الثقافة العراقية.

وخلصت الدراسة إلى أن الغزو الثقافي شكّل تهديداً حقيقياً للبنية الرمزية للمجتمع، مما يتطلب استراتيجية وطنية لاستعادة الثقافة المحلية وتعزيز الأمن الرمزي.

الكلمات المفتاحية: الغزو الثقافي، الأمن المجتمعي، الهوية الثقافية، الجندر.

Cultural invasion, community security, and the protection of cultural identity An analytical study of Iraqi society in light of contemporary transformations

Dr. Falah Hasan Abed
College of Political Science / University of Nahrain
dr_falah1967@yahoo.com

Research submission date: June 10, 2025
Research acceptance date: June 29, 2025

Abstract

This research explores the phenomenon of cultural invasion and its impact on societal security and cultural identity in Iraq, particularly in the post-2003 period.

The study examines how foreign cultural narratives and values have reshaped local perceptions of gender, identity, and community roles, resulting in a symbolic fragmentation of society and weakening of traditional institutions.

The theoretical framework relies on concepts such as cultural hegemony, symbolic security, and gender discourse, offering a critical analysis of how these forces interact in shaping modern Iraqi culture.

The findings suggest that cultural invasion represents a strategic threat that necessitates a coherent cultural policy to protect and revitalize indigenous identity.

Keywords: Cultural Invasion, Societal Security, Cultural Identity, Gender.

المبحث الأول

الإطار المفاهيمي والنظري

أولاً: مشكلة الدراسة

يمثل الغزو الثقافي أحد أبرز التحديات التي تواجه المجتمعات المعاصرة، لا سيما المجتمعات الخارجة من حروب أو نزاعات مثل المجتمع العراقي. إذ لم يعد الغزو الثقافي مجرد تأثير ناعم أو جانبي، بل تحوّل إلى أداة استراتيجية تُستخدم لإعادة تشكيل وعي الشعوب، وتفكيك منظوماتها الرمزية والاجتماعية.

وتزداد خطورة هذا الغزو في ظل ضعف مؤسسات التنشئة والتوجيه، وانتشار الإعلام الرقمي العابر للحدود، ما يجعل من المجتمعات الهشة هدفاً مفتوحاً لتيارات ثقافية تَحمل أنماطاً وقيماً لا تتناغم بالضرورة مع السياق المحلي.

تنطلق الدراسة الحالية من فرضية أن الغزو الثقافي في العراق بعد ٢٠٠٣ لم يكن مجرد ظاهرة مرافقة للتحول السياسي، بل كان أحد أدوات إعادة تشكيل الوعي، وتقويض أسس الانتماء، مما أدى إلى تهديد الأمن المجتمعي وتفكيك الهوية الوطنية.

ثانياً: هدف الدراسة

ويهدف إلى تحليل العلاقة بين الغزو الثقافي والأمن المجتمعي، مع التوقف عند دور الجندر كإحدى ساحات الصراع الرمزي.

ثالثاً: تحديد المفاهيم

١) مفهوم الغزو الثقافي

يُعرّف الغزو الثقافي بوصفه أحد أشكال التغلغل الرمزي الذي تستخدمه القوى المهيمنة لإحداث تغيير في البنية الثقافية للمجتمعات المستهدفة، من دون اللجوء إلى أدوات القوة الصلبة. ويحدث هذا الغزو غالباً عبر وسائل ناعمة كالسينما، التعليم، الإعلام، والمؤسسات الدولية، والتي تقوم بدور الوسيط في تمرير القيم والرموز والمعايير الغربية إلى مجتمعات مختلفة ثقافياً.

وقد نوّه المفكر الأميركي (الفلسطيني الأصل) إدوارد سعيد إلى أن السيطرة الثقافية تُعد امتداداً للإمبريالية السياسية، إذ لا يكفي احتلال الأرض، بل يجب "احتلال الوعي" وإعادة تشكيله وفق قيم المنتصر (Said, 1993).

ويتجلّى هذا النوع من الغزو في استبدال الرموز اللغوية، وتغيير الأذواق الجمالية، وإعادة تفسير التاريخ، بما يخدم سرديات خارجية، ويُضعف الذاكرة الجمعية للأمم، في حين يرى باحث آخر أن الغزو الثقافي لا يُمارَس

بسطحية، بل هو مشروع استراتيجي طويل الأمد، يسعى إلى تفكيك الثقافة المحلية واستبدالها بأخرى هجينة تُنتج الاستهلاك والتبعية (الكبيسي ٢٠٢٠، ص ٢١).

وفي السياق العربي، يُنظر إلى الغزو الثقافي باعتباره عملية اختراق خطيرة، لا تُمارَس فقط على مستوى الأفراد، بل تستهدف المجتمعات بكامل بنيتها، من خلال ضرب منظومة القيم والمفاهيم الأساسية مثل الانتماء، الدين، الأسرة، والهوية القومية.

٢) مفهوم الأمن المجتمعي

الأمن المجتمعي يختلف عن المفهوم الكلاسيكي للأمن المرتبط بالحماية من الاعتداء العسكري. فهو يعني قدرة المجتمع على الحفاظ على تماسكه واستقراره الداخلي، في مواجهة التهديدات غير المباشرة كالتفكك الثقافي، ضعف الانتماء، وانتشار النزعات الفردانية.

يؤكد (الربيعي٢٠٢١, ص ٤٥) أن الأمن المجتمعي يرتبط بصيانة البنية الثقافية والاجتماعية، من خلال دعم الانسجام بين مكونات المجتمع، والحفاظ على الهوية الرمزية للجماعة.

ويتطلب تحقيق الأمن المجتمعي وجود شبكة من القيم المشتركة التي تضبط العلاقة بين الفرد والمجتمع، وتضمن استمرارية المؤسسات الاجتماعية كالعائلة والمدرسة والمسجد. ومن هنا، يُعتبر الأمن الثقافي جزءاً لا يتجزأ من الأمن المجتمعي، لأنه يوفّر الأرضية الرمزية التي يقوم عليها الانتماء والوحدة الوطنية.

يشير عالم الاجتماع البريطاني أنتوني غيدينز A. Giddens إلى أن تهديد البنية القيمية في أي مجتمع يُفضي إلى تفكك الرابطة الاجتماعية، ويُنتج مشاعر العزلة والقلق، ويُضعف الثقة المتبادلة، مما يُمهّد الطريق للاضطرابات السياسية والانهيارات المجتمعية (Giddens, 2006).

٣) مفهوم الهوية الثقافية

الهوية الثقافية ليست مجرد تعبير عن انتماء رمزي، بل هي نظام متكامل من الرموز، واللغات، والعادات، والتقاليد، التي تميّز مجتمعاً عن آخر. وتمثل الهوية القاعدة التي يُبنى عليها الإدراك الجماعي للذات والآخر، كما تحدد كيفية تفاعل الفرد مع العالم من حوله.

في العراق، تعرضت الهوية الثقافية لضربات متتالية، ليس فقط بسبب الاحتلالات، بل نتيجة النزاعات الطائفية، والهجرة، والتهميش، وضعف السياسة الثقافية الرسمية.

وكما يذهب صامويل هينتغتون S. Huntington أن المجتمعات التي تُفقد هويتها تصبح عاجزة عن تحديد أولوياتها ومصالحها، لأنها تفتقر إلى بوصلة مرجعية داخلية (Huntington, 1996).

وقد أكدت دراسات حديثة أن تراجع الهوية الوطنية لدى فئات من الشباب العراقي مرتبط بضعف الخطاب الثقافي المحلي، وغياب الرموز الجامعة، ما يُسهم في تصاعد الهويات الفرعية، كالهويات الطائفية أو المناطقية، على حساب الهوية الوطنية الجامعة (الربيعي، ٢٠٢١، ص ٦٦).

ثالثاً: الإطار النظري للبحث

تستند هذه الدراسة إلى مجموعة من الأطر النظرية التي تفسّر آليات الغزو الثقافي وعلاقته بالأمن المجتمعي، منها:

- **النظرية النقدية الثقافية:** كما طرحها غرامشي، والتي ركّز فيها على مفهوم الهيمنة الثقافية (Cultural Hegemony)، حيث تُمارَس السيطرة من خلال الثقافة لا العنف.
- **نظرية الهيمنة الرمزية لبورديو:** والتي توضّح كيف تُعاد إنتاج الفوقية الثقافية عبر المؤسسات التربوية والإعلامية، دون الحاجة لفرض مباشر.
- **نظرية الأمن الثقافي:** هي نظرية حديثة تربط بين الثقافة والأمن القومي، وتُظهر كيف أن زعزعة النظام الرمزي لأي مجتمع قد تؤدي إلى تهديد وجودي (الزبيدي، ٢٠٢٢).

هذه الأطر تساعد في فهم العلاقة المعقّدة بين الثقافة، السلطة، والانتماء، وتوفّر أدوات تحليل فعالة لفهم المشهد العراقي بعد ٢٠٠٣، وتفسير تداعيات الغزو الثقافي على الفرد والمجتمع.

المبحث الثاني

الغزو الثقافي في العراق–الأبعاد والمظاهر

أولاً: السياق العراقي بعد عام ٢٠٠٣

يشكل العام ٢٠٠٣ لحظة مفصلية في التاريخ السياسي والثقافي العراقي، حيث أدى انهيار النظام السابق إلى تغيّر جذري في البنية المؤسسية، وتَرافق ذلك مع فراغ أمني وثقافي جعل البلاد مهيأة لتلقي تأثيرات خارجية من دون مقاومة مؤسسية فاعلة.

وقد أسهم الاحتلال الأمريكي وما تلاه من سياسات الانفتاح غير المنظّم، في اختراق الساحة العراقية بأنماط ثقافية وإعلامية غير مألوفة، بعضها جاء في صورة برامج إغاثة ثقافية، وبعضها الآخر عبر فضائيات ومؤسسات تعليمية ومنظمات مجتمع مدني دولية (الربيعي، ٢٠٢١، ص ٤٩).

يُشير علاوي (٢٠٢٣) إلى أن هذه المرحلة شهدت تراجعاً ملحوظاً في دور المؤسسات الرسمية، مثل وزارة الثقافة والتربية والتعليم، ما جعل القطاع غير الرسمي هو المصدر الأبرز للثقافة. وقد أفسح ذلك المجال أمام

تدفق نماذج ثقافية هجينة، بدأت تدريجياً في تشكيل وعي جيل جديد من العراقيين، في ظل غياب رؤية وطنية واضحة لضبط هذا التدفق.

ثانياً: مظاهر الغزو الثقافي في الثقافة اليومية

تجلّت التأثيرات الثقافية الوافدة في مظاهر الحياة اليومية للمجتمع العراقي، وبخاصة في المدن الكبرى والمراكز الحضرية ذات الاتصال العالي بالفضاء الرقمي، ويمكن رصد أبرز هذه المظاهر فيما يأتي:

- **اللغة:** لاحظ العديد من الباحثين انتشار واسع للكلمات الأجنبية، خصوصاً الإنجليزية، في الأحاديث اليومية، وداخل الجامعات والأسواق، إلى درجة باتت فيها المفردات الأجنبية جزءاً من اللغة المتداولة، ما يُعد مؤشراً على تبدل الذائقة اللغوية.
- **اللباس:** تغيّرت أنماط اللباس لدى فئات واسعة من الشباب، خاصة النساء، مع هيمنة الموضة الغربية، وغياب شبه كامل للهوية الجمالية العراقية في مظهر الجسد.
- **الفنون والموسيقى:** اتسع نطاق تداول الموسيقى الغربية وأنماطها (كالبوب والراب)، على حساب الفولكلور المحلي أو الموسيقى الكلاسيكية العراقية، مما يُشير إلى تحول الذائقة السمعية باتجاه أنماط ثقافية استهلاكية.
- **الفضاء الرقمي:** تحول الإنترنت إلى المصدر الأول للترفيه والثقافة، حيث تتراجع قراءة الكتب، والأنشطة الثقافية الجماعية، لصالح مقاطع الفيديو القصيرة، والرموز البصرية المستوردة.

ويلاحظ الكبيسي (٢٠٢٠، ص ٣٣) أن هذه التغيرات لا يمكن تفسيرها فقط كنتيجة طبيعية للعولمة، بل تعكس وجود سياسة ناعمة تسعى إلى تغيير ملامح الهوية الثقافية، وإنتاج مجتمع مُعاد تشكيله على أسس ثقافية وافدة.

ثالثاً: أدوات الغزو الثقافي

تعتمد منظومات التأثير الثقافي الوافد على مجموعة من الأدوات الناعمة التي تستهدف الوعي الجماعي بشكل غير مباشر، ومن أبرز هذه الأدوات:

- **الإعلام الفضائي:** حيث تقوم القنوات غير الوطنية ببث برامج وأفلام تُروّج لقيم وسلوكيات تختلف عن المرجعية الثقافية المحلية، وتُعيد تشكيل صورة المرأة، والأسرة، والنجاح، والمعايير الاجتماعية.
- **الإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي:** هذه الوسائط تُقدّم للمستخدمين محتوى مرئياً وسريع التأثير، يتم تداوله عبر الخوارزميات التي تروّج للقيم السائدة عالمياً، بما في ذلك الفردانية، والنجاح الشخصي، والتعبير الحر غير المقيد.

- **البرامج التعليمية الأجنبية:** دخلت بعض المدارس والجامعات العراقية في شراكات مع مؤسسات دولية تقدم مناهج تعليمية بلغة أجنبية، وبمرجعية ثقافية مختلفة، ما أدى إلى تناقضات في القيم والمعايير بين ما يُدرّس داخل الصفوف، وما تعيشه العائلات في البيوت.
- **الإنتاج السينمائي والموسيقي العالمي:** كثير من الأفلام والمسلسلات الأجنبية التي تُعرض في العراق تحمل مضامين مرتبطة بالتحرر الجندري، الاستهلاك، ونمط الحياة الغربية، ويتم تقليد هذه الأنماط دون نقد أو تكييف.

يرى (Said, 1993) أن الإمبريالية الثقافية لم تعد بحاجة إلى قوة عسكرية، لأن الصورة والكلمة والرمز أصبحت أدوات أكثر فاعلية في تشكيل الخيال الجمعي والسيطرة على الثقافة.

رابعاً: الجندر والغزو الثقافي

أصبحت قضايا النوع الاجتماعي من أكثر المجالات حساسية في الجدل الثقافي داخل المجتمعات العربية، ومنها العراق. وقد استُخدم خطاب الجندر، خاصة بعد ٢٠٠٣، كمجال لتصدير قيم جديدة تتعلق بأدوار المرأة والرجل، والعلاقات داخل الأسرة، والتصورات المرتبطة بالحرية الجسدية والجندرية.

ويرى عبد الرحمن (٢٠٢٠، ص ١٥٠) أن هذا الخطاب يُستخدم أحياناً كأداة لاختراق المجتمعات المحافظة، عبر الترويج لنماذج ثقافية لا تُراعي السياقات المحلية، بل تعمل على زعزعة الأدوار الرمزية داخل الأسرة. ويظهر ذلك من خلال التركيز الإعلامي على نماذج "تحررية" معزولة عن الواقع العراقي، تُقدَّم وكأنها الحل الوحيد للخروج من حالة التهميش، في حين تُهمّش تماماً النماذج المحلية الناجحة للنساء والرجال في أدوارهم التقليدية والمتطورة معاً.

إن اختزال الجندر في صراع ثنائي بين "تحرر وتقييد"، دون مراعاة لسياقات المجتمع وتاريخه وثقافته، يُسهم في خلق حالة من الانقسام الرمزي، ويدفع بفئات واسعة إلى فقدان الثقة بالخطابات الرسمية وغير الرسمية.

خامساً: تفاوت التأثر بحسب الفئة الاجتماعية والجندر

يختلف تأثير الغزو الثقافي من فئة لأخرى بحسب العمر، والموقع الجغرافي، والانتماء الاجتماعي، ومستوى التعرض للتقنيات الحديثة:

- **الشباب:** يُعدّ الشباب أكثر فئة عرضة للتأثر، بسبب تفاعلهم اليومي مع المحتوى الرقمي، ورغبتهم في التحديث والتمايز عن الأجيال السابقة.
- **النساء:** تتعرض النساء إلى تركيز إعلامي خاص، خاصة في مجالات الأزياء والجمال، حيث يتم تسويق صور نمطية عن المرأة "الحديثة"، ترتبط غالباً بالجسد والمظهر، وتتعارض أحياناً مع المعايير المحلية.

- **المدن مقابل الريف:** تظهر الفجوة الثقافية بوضوح بين الريف الذي ما زال يحتفظ بجزء كبير من المرجعيات التقليدية، والمدينة التي أصبحت أكثر انفتاحاً واستهلاكاً للثقافة الوافدة.

يشير عبد القادر (٢٠١٩، ص ١٤٣) إلى أن هذا التفاوت في التأثر يُنتج خريطة جديدة للعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع، تظهر فيها خطوط انقسام ثقافي بين الأجيال، وبين الذكور والإناث، وحتى بين سكان المناطق المختلفة.

سادساً: آثار الغزو الثقافي في الإدراك الجمعي

إن تراكم هذه التأثيرات لا يمرّ دون أثر عميق في إدراك الناس لذواتهم وللعالم، حيث يُعاد تشكيل التصورات عن النجاح، والجمال، والحياة، والعمل، والحب، والانتماء.

يلاحظ عبد الرحمن (٢٠٢٠) أن جزءاً من الجيل الجديد بات يعبّر عن نفسه بمنظومة رموز مختلفة كلياً عن تلك التي تشكل وعي الجيل السابق، ما أدى إلى تراجع القدرة على التواصل بين الأجيال، وأنتج حالة من الانفصال الرمزي، أو ما يُعرف "بالانتماء الهجين."

المبحث الثالث

العلاقة بين الغزو الثقافي والأمن المجتمعي

أولاً: الغزو الثقافي كعامل تهديد لبنية المجتمع

تُظهر التجربة العراقية أن الغزو الثقافي لا يُمارَس فقط على مستوى الرموز أو الشكل، بل يُصيب بنية المجتمع في العمق، من خلال تغييب المعاني المشتركة التي تؤسس للهوية والتماسك الاجتماعي.

فحين تتسلل القيم الجديدة إلى المجال العام دون تكييف محلي أو حوار مجتمعي، تبدأ التحولات الهادئة في العادات، والتصورات، والعلاقات بين الأفراد، ما يُنتج ما يُسمى "التحلل الرمزي."

ويذهب الباحثون إلى أن أحد أخطر مظاهر الغزو الثقافي يتمثل في تفتيت الهوية الجمعية، بحيث يصبح من الصعب الوصول إلى توافق مجتمعي حول القيم الأساسية، الأمر الذي ينعكس مباشرة على استقرار المجتمع وأمنه الداخلي (الربيعي، ٢٠٢١، ص ٧١). كما أن المجتمع المتأثر بالغزو يصبح أكثر عرضة لصراعات داخلية ناتجة عن تباين الولاءات الثقافية، والتي تُعيد إنتاج الفجوات بين الأجيال، وبين الريف والمدينة، وبين المكونات الاجتماعية المختلفة.

ثانياً: تراجع الانتماء وتفكك الهوية

الانتماء ليس فقط شعوراً عاطفياً بالارتباط بالمكان، بل هو نظام معقد من الرموز والعلاقات والروابط التي تجعل من الفرد جزءاً من جماعة تشاركه اللغة، والتاريخ، والمرجعيات الثقافية.

عندما تبدأ هذه المرجعيات بالتلاشي أو التشويش، نتيجة تأثيرات وافدة غير منضبطة، يظهر التفكك في مظاهر متعددة: كضعف الحس الوطني، وتفضيل الرموز الأجنبية، والعزوف عن المشاركة في الشأن العام.

وقد أشار أحد الباحثين إلى أن بعض أنماط الجيل الجديد باتت تُعبّر عن انتماءاتها من خلال منصات رقمية، ومرجعيات ثقافية غير محلية، الأمر الذي يخلق ما يُعرف بـ(الانتماء العائم)، وهو انتماء هش، لا يستند إلى تجربة واقعية راسخ (الزبيدي، ٢٠٢٢، ص ٦٠).

وهذا الانتماء العائم لا يدعم الوحدة الوطنية، بل يُسهم في تفككها، لأن الأفراد يتفاعلون مع فضاءات غير مشتركة، ويتأثرون بمراجع لا تعكس واقعهم، ما يضعف الثقة المتبادلة، ويجعل من فكرة "المصير المشترك" مجرد تعبير مجرّد لا يحمل مضموناً فعلياً.

ثالثاً: ضع المؤسسات التربوية والاجتماعية

تُعد الأسرة والمدرسة والمسجد من أهم المؤسسات التي تضطلع تاريخياً بمهمة بناء الهوية الثقافية والاجتماعية. لكن في ظل الغزو الثقافي، تراجعت فاعلية هذه المؤسسات بشكل ملحوظ، بسبب التنافس الشديد مع الفضاء الرقمي الذي أصبح أكثر جاذبية وتأثيراً لدى الجيل الجديد.

يشير أحد الباحثين إلى أن المدرسة العراقية، خاصة بعد ٢٠٠٣، لم تعد تملك مشروعاً ثقافياً واضحاً، بل صارت تكرر محتويات تعليمية متفرقة، لا تلامس الواقع الثقافي المتغيّر (عبد القادر، ٢٠١٩، ص ١٤١). أما الأسرة، فضعفها الاجتماعي والاقتصادي جعلها أقل قدرة على الضبط، ودفَعها إلى الانكماش أمام التحديات الجديدة.

أما المؤسسات الدينية، فهي الأخرى تعاني من فجوة تواصل مع الشباب، خصوصاً في ظل الخطاب التقليدي الذي قد لا يُخاطب إشكاليات الجيل الحالي بلغة مناسبة، الأمر الذي يفتح المجال أمام مؤثرات ثقافية خارجية لملء هذا الفراغ القيمي والتوجيهي.لكن هاهنا يمكن الإشارة الى المؤسسة الدينية الشيعية ممثلة بمرجعية السيد علي السيستاني ومقدار قوتها , وهو ماتمثل في (فتوى الجهاد الكفائي) بأثر احتلال داعش الإرهابي لما يقرب من ثلثي أراضي العراق بعد سقوط ثلاثة محافظات عراقية هي الموصل والانبار وصلاح الدين ووصلت شراذم الإرهابيين الى حدود العاصمة بغداد , فكان ان استجاب لها آلاف الشباب .

رابعاً: تآكل الثقة المجتمعية وتفكك العلاقات

من أبرز نتائج الغزو الثقافي تآكل "رأس المال الرمزي" الذي يربط أفراد المجتمع ببعضهم، والذي يتمثل في الثقة المتبادلة، والاعتماد الجماعي، والمرجعيات المشتركة. فحين تبدأ الرموز الثقافية بالتفكك، يفقد الناس الثقة بالمؤسسات، بل وبأنفسهم أحياناً، لأنهم لا يجدون توافقاً حول ما يُشكّل قيمتهم الذاتية أو الاجتماعية.

يشير هينتغتون إلى أن المجتمعات التي تتعرض لاختراق ثقافي من دون استجابة مؤسسية فاعلة، تشهد تراجعاً في التضامن الاجتماعي، وتزايداً في النزعة الفردية، لأن الروابط الجماعية تُستبدل بروابط استهلاكية أو حتى وهمية (Huntington, 1996).

وفي الحالة العراقية، يمكن ملاحظة ذلك في تصاعد أنماط السخرية من القيم الوطنية، وتراجع الرموز الجامعة، وانقسام الفضاء العام بين ولاءات ثقافية متضاربة، تُظهر حالة من التفكك الصامت داخل المجتمع.

خامساً: الأمن الثقافي كأساس للاستقرار المجتمعي

إذا كان الأمن السياسي يركّز على استقرار الدولة، فإن الأمن الثقافي يُركّز على استقرار المعنى. وحين يتراجع المعنى المشترك للحياة، والهوية، والانتماء، يصبح من الصعب على الدولة أن تبني عقداً اجتماعياً متيناً، أو أن تُحقق تماسكاً داخلياً مستقراً.

يرى الكبيسي (٢٠٢٠، ص ٤٥) أن الحفاظ على الأمن الثقافي يعني أولاً بناء وعي نقدي قادر على التفاعل مع المؤثرات الخارجية دون الانسياق وراءها، وثانياً، توفير بيئة تعليمية وإعلامية تنتج خطاباً محلياً، متماسكاً، ومقنعاً، يقدّم بدائل حقيقية لموجات الغزو الناعم.

كما أن الأمن الثقافي لا يعني الانغلاق أو رفض العالم، بل يتطلب القدرة على إعادة إنتاج الهوية في ضوء المعاصرة، بحيث تبقى مرنة ومفتوحة، دون أن تفقد جذورها.

المبحث الرابع

الجندر كمساحة للصراع الثقافي

أولاً: الجندر والغزو الثقافي – تقاطع السياسة والثقافة

تحوّل مفهوم الجندر من كونه مجرد تصنيف بيولوجي إلى أداة رمزية وثقافية تُوظَّف في الخطاب العالمي المعاصر لإعادة تشكيل الأدوار والهويات. وقد أصبح هذا المفهوم ميداناً للصراع بين قوى التغيير القادمة من خارج السياق المحلي، والمؤسسات الاجتماعية التي تحاول الحفاظ على الأدوار التقليدية.

في هذا السياق، يُستخدم خطاب الجندر كأداة في مشروع الغزو الثقافي، حيث تُقدَّم مفاهيم مثل "التحرر"، و"التمكين"، و"الحقوق الجندرية"، دون تكييفها مع الواقع الثقافي والاجتماعي في العراق.

يشير عبد الرحمن (٢٠٢٠، ص ١٥٠) إلى أن الجندر يُقدَّم غالباً في أدبيات المنظمات الدولية بصيغة نمطية، تركّز على تحرير المرأة من كل قيد تقليدي، ما يُفضي إلى تقاطعات شائكة مع الثقافة المحلية التي ما تزال تُؤمن ببعض الأدوار النوعية القائمة على التقاليد والدين.

وقد انعكس هذا الصراع بوضوح في النقاشات المجتمعية العراقية، خاصة بعد ٢٠٠٣، عندما بدأت برامج الدعم الدولي تركّز على "تمكين المرأة" دون ربطه بسياقات الأسرة أو الثقافة، ما ولّد نوعاً من الصدمة الثقافية، وفتح الباب أمام اتهامات متبادلة بين أنصار "التحرر" والمدافعين عن "الهوية."

ثانياً: تغيّر أدوار النوع الاجتماعي في العراق

شهد العراق، خصوصاً بعد الاحتلال الأمريكي، تغيرات جوهرية في البنية المجتمعية، طالت العلاقة بين الرجل والمرأة، وحدود الأدوار، وتمثيل الجنسين في الفضاء العام. فقد بدأت المرأة العراقية تأخذ مساحة أوسع في العمل والتعليم والإعلام، وهو تطور مهم، لكن في الوقت نفسه، تَرافَق هذا التغير مع أزمة في فهم دور الرجل، وخلخلة في بناء الأسرة التقليدية، وارتباك في التصورات المجتمعية عن التوازن المطلوب.

يشير الزبيدي (٢٠٢٢، ص ٥٧) إلى أن أحد آثار الغزو الثقافي هو تصدير نماذج جاهزة للدور الأنثوي، حيث باتت المرأة تُعرّف أساساً من خلال مظهرها الخارجي، واستقلاليتها الاقتصادية، في مقابل تغييب الجوانب القيمية والروحية والاجتماعية لدورها. وقد أدى ذلك إلى نشوء فئة من النساء تتبنى هذا النموذج، دون نقد أو تكييف، بينما تُقابله فئة أخرى ترفضه رفضاً تاماً، ما يُنتج انقساماً داخل المجتمع بين نماذج متصارعة.

وفي هذا السياق، بدأت الأسرة العراقية تواجه صعوبة في تربية الأبناء وفق مرجعية واضحة، نتيجة تضارب الرسائل الثقافية حول الجندر، وتعدد المرجعيات التي يتعرض لها الطفل أو الشاب من المدرسة، ووسائل الإعلام، ومواقع التواصل.

ثالثاً: وسائل الإعلام ومنصات التواصل – الجندر كمنتج بصري

لعبت وسائل الإعلام، وخصوصاً منصات التواصل الاجتماعي، دوراً بالغ التأثير في إعادة تشكيل تصور الفرد عن ذاته وعن الآخر، من خلال صناعة صورة جديدة للرجل والمرأة تستند إلى مفاهيم "النجاح"، و"الحرية"، و"التمرد على السلطة الأبوية."

يبين عبد القادر (٢٠١٩، ص ١٤٦) أن المحتوى الرقمي الموجَّه للجمهور العراقي يعتمد بشكل كبير على صور نمطية جاهزة: المرأة الجذابة المستقلة مالياً، والرجل العصري غير الملتزم بالمسؤوليات التقليدية. هذه الصور تُكرَّر في الفيديوهات، والإعلانات، والمحتوى الترفيهي، مما يُفضي إلى بناء وعي جمعي مشوَّه، يربط التقدم الاجتماعي بالتشبه بالمظاهر الغربية.

ويُلاحظ أن هذه المنصات لا تنقل فقط نمط اللباس أو الكلام، بل تُصدّر فلسفة كاملة حول العلاقات والسلطة داخل المجتمع، وهو ما يؤثر على العلاقات بين الجنسين، ويُعيد تشكيل التوقعات المتبادلة بين الرجل والمرأة، داخل البيت وخارجه.

رابعاً: صدام النموذجين – المحلي مقابل العالمي

يعيش المجتمع العراقي، مثل كثير من المجتمعات العربية، في صراع ثقافي مستمر بين نموذجين للجندر:

- النموذج المحلي الذي يستند إلى الدين، والتقاليد، والعلاقات التراكمية.
- والنموذج العالمي الذي يستند إلى الفردانية، والحرية المطلقة، والمساواة الشكلية.

ويرى هينتغتون أن هذا الصراع لا يُمكن حسمه بسهولة، لأن النموذج العالمي لا يسعى فقط إلى التعايش، بل إلى الإزاحة الرمزية للنموذج المحلي، عبر بناء مرجعية ثقافية بديلة يتم فرضها من خلال التعليم والإعلام والقانون والسياسات الاجتماعية (Huntington, 1996).

في العراق، ينعكس هذا التوتر في المدارس والجامعات، والبرامج التلفزيونية، وحتى في الخطاب السياسي. ففي حين تتبنى بعض المنظمات والمؤسسات الرسمية خطاب الجندر العالمي، ترفضه قطاعات واسعة من المجتمع، ما يؤدي إلى ازدواجية في السلوك والخطاب، ويدفع إلى حالة من الارتباك الثقافي العميق.

خامساً: بين التمكين الحقيقي والاستغلال الرمزي

التمكين الحقيقي للمرأة لا يعني بالضرورة تبني النموذج الغربي، بل هو مشروط بمدى قدرة المرأة على التعبير عن ذاتها في سياق ثقافتها، ومشاركتها الفعلية في القرار، دون فقدان انتمائها وهويتها.

لكن بعض الخطابات المرتبطة بالجندر تسقط في فخ "التمكين الرمزي"، حيث يتم استغلال قضايا النساء لتحقيق أجندات سياسية أو ثقافية خارجية، دون معالجة حقيقية لجذور التهميش أو الإقصاء. يؤكد الكبيسي (٢٠٢٠، ص ٥٩) أن التمكين الرمزي يظهر عندما تُختزل قضية المرأة في تمثيلها العددي في المؤسسات، أو في ظهورها الإعلامي، دون أن تترافق هذه التمثيلات مع تغيير في الواقع الاقتصادي أو القانوني أو المجتمعي.

وتكون النتيجة أن النساء يتواجدن في الفضاء العام بشكل أكبر، لكن دون حماية قانونية كافية، أو تمكين اجتماعي فعلي، ما يجعلهن عرضة للضغط، أو للتشكيك، أو حتى للتمييز في صورته المعكوسة.

المبحث الخامس

الخاتمة – النتائج – التوصيات

أولاً: الخاتمة

تُظهر نتائج هذا البحث أن الغزو الثقافي في العراق ليس ظاهرة طارئة أو سطحية، بل يمثل تحوّلاً عميقاً يمس البنية الرمزية والاجتماعية للمجتمع، ويؤثر في معايير الانتماء، والتفاعل، والتواصل بين الأفراد.

إن الغزو الثقافي، كما تبيّن، يعمل على أكثر من مستوى: من اللغة، إلى الذوق، إلى الأدوار الجندرية، وحتى منظومة القيم العامة، الأمر الذي يهدد وحدة المجتمع الرمزية ويفتح المجال أمام الانقسامات الثقافية غير المرئية.

وقد كشف تحليل العلاقة بين الغزو الثقافي والأمن المجتمعي أن المسألة تتجاوز التأثير الثقافي البحت، لتصل إلى بُعد استراتيجي يمسّ استقرار المجتمع، وسلامه الأهلي، وقدرته على إنتاج ثقافته الوطنية المتجددة. كما أظهر المبحث الخاص بالجندر أن هذا المفهوم قد تحول إلى ساحة مركزية للصراع بين مرجعيات داخلية وخارجية، تُسهم في إعادة تشكيل الأدوار الاجتماعية بطريقة قد لا تتسق مع الواقع المحلي، ولا تخدم تمكيناً حقيقياً للمرأة أو الرجل.

ويُجمع العديد من المفكرين أن الهويات القوية لا تُبنى على الانغلاق، بل على وعي نقدي يمكّن المجتمع من فلترة ما يصل إليه من الخارج، ومن إعادة إنتاج ثقافته بما يواكب التحولات دون أن يفقد ثوابته (Huntington, 1996). ومن هنا، فإن الأمن الثقافي لا يُعد ترفاً فكرياً، بل شرطاً أساسياً لبناء مجتمع متماسك، قادر على الصمود أمام التفكك الرمزي، والاستلاب الهوياتي.

ثانياً: أبرز النتائج

من خلال التحليل النظري والتأطير المفاهيمي والمقاربة التطبيقية للسياق العراقي، توصّل البحث إلى النتائج التالية:

١. الغزو الثقافي يتخذ طابعاً ناعماً ومنهجياً، ويتم عبر أدوات مثل الإعلام، التعليم، والإنترنت، ويهدف إلى تفكيك الرموز والمرجعيات (Said, 1993).
٢. ضعف مؤسسات التنشئة الاجتماعية كالعائلة والمدرسة أدى إلى انخفاض قدرة المجتمع على مقاومة التأثيرات الخارجية، مما زاد من هشاشة الأمن الرمزي (عبد القادر، ٢٠١٩، ص ١٤١).
٣. تراجع الانتماء الثقافي والوطني لدى الشباب نتيجة الاعتماد على منصات تواصل أجنبية، واستيراد نماذج لا تعكس الواقع العراقي (الزبيدي، ٢٠٢٢، ص ٦٠).

٤. الجندر تحوّل إلى أداة رمزية للصراع الثقافي، لا سيما في ظل غياب فهم محلي ناقد للمفهوم، حيث يتم تسويقه بنمط عالمي غير قابل للتكييف (عبد الرحمن، ٢٠٢٠، ص ١٥٠).

٥. غياب استراتيجية ثقافية وطنية واضحة يجعل العراق أكثر عرضة للاختراق الثقافي، ويسهم في تفكك الهوية وضعف التضامن الاجتماعي (الكبيسي، ٢٠٢٠، ص ٤٥).

ثالثاً: التوصيات

بناءً على ما تم عرضه من معطيات وتحليل، يمكن تقديم مجموعة من التوصيات الأكاديمية والمجتمعية والسياسية:

١. تبنّي مشروع ثقافي وطني يعيد الاعتبار للهوية العراقية الجامعة، ويُقدّم رؤية معاصرة للثقافة المحلية في مواجهة التغريب غير المنضبط.

٢. تطوير المناهج التعليمية لتشمل مفاهيم الهوية والانتماء والأمن الثقافي، ولتُصبح المدرسة أداة بناء لا تكرار للماضي.

٣. دعم الإعلام الوطني في إنتاج محتوى ثقافي رقمي قادر على جذب الشباب، ويُرسّخ قيماً وطنية بلغة جديدة ومؤثرة.

٤. تفعيل مؤسسات المجتمع المدني في رصد مظاهر الغزو الثقافي، والعمل على تعزيز الوعي الثقافي في المجتمعات المحلية من خلال ورش ومبادرات توعوية.

٥. إعادة تأطير خطاب الجندر داخل العراق بشكل يحترم الخصوصية الثقافية، ويعزز التمكين الواقعي لا الرمزي، ويضمن العدالة لا الاستنساخ.

رابعاً: آفاق البحث

نظراً لتعدد أبعاد الغزو الثقافي وتشعبه، يبقى هذا البحث تمهيداً أولياً لتحليل أوسع، ويمكن التوسّع مستقبلاً في المحاور التالية:

١. إجراء دراسات ميدانية لاستطلاع آراء الشباب العراقي حول مفاهيم الهوية والانتماء الثقافي في ظل هيمنة وسائل التواصل الاجتماعي.

٢. تحليل المحتوى البصري والإعلامي المحلي من حيث مدى التزامه بالهوية الثقافية العراقية، أو تقليده للأنماط العالمية دون وعي نقدي.

٣. مقارنة الأثر الثقافي في العراق مع دول عربية أخرى ذات تجربة ما بعد نزاع، مثل سوريا أو لبنان، لرصد الفروقات والاستفادة من التجارب المقارنة.

٤. دراسة دور التعليم العالي في مقاومة الغزو الثقافي، من خلال تحليل المناهج الأكاديمية، وطبيعة النشاط الثقافي داخل الجامعات.

٥. التركيز على الجندر في الإعلام الرقمي العراقي، ومدى تمثيل المرأة والرجل في منصات التواصل الاجتماعي بشكل ينسجم مع السياق الثقافي المحلي.

مصادر الدراسة

أولاً: العربية

١. الكبيسي، عبد الحميد .(2020) .الغزو الثقافي والتحديات الأمنية .بغداد: دار ابن الأثير للطباعة والنشر.

٢. الربيعي، فالح عبد الجبار .(2021) .الهوية والثقافة في العراق .بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

٣. الزبيدي، محمد علي. (٢٠٢٢). "الغزو الثقافي وأثره على الأمن القومي ."مجلة العلوم الاجتماعية العراقية، ١٨(2)، ٤٥.67–

٤. عبد القادر، سعاد .(2019) .الثقافة والأمن المجتمعي في العراق .بغداد: دار الحكمة للنشر والتوزيع.

٥. عبد الرحمن، مها. (٢٠٢٠). "الهوية الجندرية والتحولات الثقافية في المجتمع العراقي ."المجلة العربية لعلم الاجتماع، ١٢(1)، ١٣٣.158–

٦. علاوي، محمد حسين .(2023) .التحولات الثقافية في العراق بعد ٢٠٠٣ .بغداد: منشورات جامعة بغداد – كلية الآداب.

ثانياً: الأجنبية

1. Said, E. W. (1993). *Culture and Imperialism*. New York: Vintage Books.
2. Huntington, S. P. (1996). *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*. New York: Simon & Schuster.
3. Inglehart, R., & Norris, P. (2003). *Rising Tide: Gender Equality and Cultural Change Around the World*. Cambridge: Cambridge University Press.
4. Giddens, A. (2006). *Sociology* (5th ed.). Cambridge: Polity Press.